الدرس الثالث : بدايات التّأليف المعجمي العربي .

1ماهية المعجم :

تعريف المعجم:

لغة: يبدو ان الدلالة الاولى التي تضمنتها مادة (ع ج م) عند العرب كانت تفيد معنى : الابهام و الاخفاء و هي ضد البيان و الافصاح , و دليل ذلك ما اوردته المعجمات العربية كالعين و الجمهرة والتهذيب و صحاح العربية و اللسان و القاموس ...فالاعجم هو الذي لا يفصح و لا يبين كلامه و ان كان عربيا .

فيقال رجل اعجم و امراة عجماء .

و استعجم علينا الكلام : استبهم .

و يقال صلاة النهار عجماء : انما اراد انه لا يجهر فيها بالقراءة.

و فلان لا يستعجم في شعره : اي لا يحوج قارئه الى الاستعانة بمعجم.

يلاحظ ان المعاني التي اوردتها المعجمات العربية القديمة الانفة الذكر تسيطر عليها دلالة السلب اي انها تدور (الابهام) و (الغموض) و (الخفاء)و هذه السلبية لا تساير المقصود من المعجم , فهو يستعمل لازالة غموض الكلمات و العبارات و تبيان مدلولاتها .

فما هو الحل و المخرج من هذا الاشكال؟

الجواب على هذا الاشكال من وجهتين :

الراي الاول: ان زيادة بعض الحروف في الكلمة قد تتسبب تغييرا في المعنى , وقد خصص علماء الصرف لذلك باب سموه (معاني صيغ الزوائد).

فاذا ما زيدت الهمزة فقيل اعجم :دل ذلك على ازالة الابهام و الخفاء , يقول ابو الفتح ابن جني"ثم انهم لما قالوا اعجمت الكتاب اذا بينته و اوضحته فهو اذا لسلب معنى الاستبهام لا اثباته ".

الراي الثاني :يرى ان الدلالة السلبية التي تفيد معنى (الابهام و الغموض) كانت سائدة حين كانت العرب لغة منطوقة بلا كتابة ولا تدوين فلما بدات جهود العلماء في العناية بالخط و النقط و الشكل و اصول الكتابة صار العرب يفهمون من لفظة (المعجم) دلالتي السلب و الايجاب معا. وان غلب الايجاب بعد ذلك فقالوا: اعجم الكتاب : ازال عجمته اي اوضحه.

و الاعجام و التعجيم :التنقيط.

اصطلاحا :المعجم هو الكتاب المرجعي الذي يضم كلمات اللغة مرتبة ترتيبا هجائيا او موضوعيا , و يعطي مع كل كلمة هجاءها و دلالتها وقد يضيف الى ذلك نطقها و استخدامها و مرادفاتها و اشتقاقاتها و تاريخها و بعض الصور الايضاحية لها .

2التاليف المعجمي الارهاصات و الميلاد:

لاشك ان لكل لغة بداية تحدد نشاتها و انطلاقها , بدءا بالنطق و مرورا بالاعتماد على الذاكرة و الرواية الشفوية , وصولا الى التدوين و الكتابة , فكانت العربية معتمدة على الحفظ و المشافهة و لم تدون الا الصكوك و العهود و المواثيق.

اما الاخبار و الانساب و القصص و الامثال و المعارف البسيطة , في الطب و الفراسة و اللغة و الشعر فلم تدون الا في احوال نادرة , نظرا لشيوع الامية و البداوة بينهم .

و لم يعرف العرب التاليف المعجمي قبل العصر العباسي لاسباب اهمها:

1انتشار الامية بينهم فالذين كانوا يعرفون القراءة و الكتابة قبل الاسلام قليلون .

2طبيعة حياتهم الاجتماعية القائمة على الغزو و الانتقال من مكان الى اخر.

3اتقانهم للغتهم , فقد كانت العربية عندهم لسان المحادثة و الخطابة و الشعر.

لعل هذه ابرز الاسباب التي ادت الى تاخر ظهور فكرة المعجمية بمفهومها المشهور و المتعارف عليه, لكن يا ترى ماهي بذور نشاة المعاجم عند العرب؟

يرى الكثير من الباحثين ان بوادر المعاجم منشؤها تلك التساؤلات التي كانت تراود الصحابة عن معاني بعض الالفاظ الغربية التي لم تالفها مسامعهم و لم تعيها اذاهانهم , ومن ذلك ما روي عن ابن العباس انه قال: كل القران اعلمه الا اربعا: غسلين ,حنانا ,اواه ,الرقيم .و ما روي عنه ايضا انه قال : ماكنت ادري ما معنى قوله : "ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق " حتى سمعت قول بنت ذي يزن : تعال افاتحك تريد اخاصمك ,و كذلك يروى عنه انه قال كنت لا ادري ما (فاطر السماوات و الارض) حتى اتاني اعربيان يختصمان في بئر فقال احدهما : انا فطرتها يعني انا ابتداتها.

و الظاهر ان ابن العباس رضي الله عنهما كان يقوم بما تقوم به المعجمات اليوم , و ذلك من خلال كونه مصدرا لشرح الغوامض و المبهمات و الغرائب,التي كان تشكل على اهل عصره.

حيث كان يقول اذا تعاجم شيء من القران فانظروا في الشعر فان الشعر عربي والله تعالى يقول (انا جعلناه قرانا عربيا),و قوله ايضا" اذا سالتموني عن غريب القران فالتمسوه في الشعر فان الشعر ديوان العرب"

و تجدر الاشارة انه ينسب لابن عباس تفسير القران الكريم هو (التفسير الكبير), و فيه شرح مفردات القران مع تفسير اياته الكريمات , و صنيع ابن عباس في هذا التفسير هو صنيع معجمي .

وقد اقتفى اثر ابن عباس و حذا حذوه ابان بن تغلب الجريري, و الف كتابا في غريب القران و ذكر شواهده من الشعر العربي كابن عباس .و ابن دريد . و العزيري .و الراغب الاصفهاني .

كما يحسن التنبيه الى ان (سوالات نافع بن الازرق)لابن عباس فيما يتعلق بغريب القران و جواب ابن عباس عليها تعد النواة الاولى للمعاجم العربية.

ويقول الدكتور خالد فهمي :توجهت المحاولات الاولى في مجال المعجم الى العناية بلفظ الذكر الحكيم وحده من دون مخالطة من لفظ اخر على ما نرى في المحاولة المعجمية المبكرة جدا المعروفة باسم :سؤالات نافع بن الازرق لابن عباس رضي الله عنهما.

و يلاحظ ان هذه السؤالات قد تميزت بعدد من الخصائص:

1عشوائية المنهج , بمعنى ان ترتيب الالفاظ لم يخضع لمنهج معين.

2العناية بذكر السياق اي الاية التي ورد فيها اللفظ المراد بيانه .

3العناية بذكرالشاهد المعجمي و هو الشهر القديم.

4العناية بالوظيفة الام للعمل المعجمي و هي شرح المعنى و بيانه .

5النوعية وهي كثرة الفاظ غريب القران .

6النقص في بعض الوظائف المعجمية المكملة كالصرف و النحو.

كما كان النبي صلى الله عليه و سلم يفسر للصحابة رضي الله عنهم ما صعب عليهم من الفاظ او معاني غريبة في كلامه ومن ذلك : ما روي عن الرسول صلى الله عليه و سلم حين ذكر اشراط الساعة فقال: وان ينطق الرويبضة . قيل يا رسول الله ما الرويبضة؟ فقال :الرجل التافه يتكلم في امر العامة.

و يتضح لنا مما سبق ان البحث عن غريب القران و السنة يعد ارهاصا لظهور المعجم العربي ,كما يتبين لنا اسبقية التاليف في غريب القران عن غريب الحديث و بالتالي عن المعاجم اللغوية .

3دوافع التّأليف المعجمي عند العرب:

إنّ المعجم وعاء اللّغة وحافظها من اللّحن والتّصحيف، وهو المرجع الفصل عند التحاكم إلى أصيلها من غيره. المعجم هو الهوّية الّتي تميّز المبتذل، والوحشي، والغريب من الجزل الفصيح الصحيح. فهو كما عرّفه" **علي القاسمي** "في مؤلّفه **علم اللّغة وصناعة المعجم**، "كتاب يحتوي على كلمات منتقاة، ترتّب عادة ترتيباً هجائيّاً، مع شرح معانيها ومعلومات أخرى ذات علاقة بها، سواء أعطيت تلك الشروح باللّغة ذاتها أم بلغة أخرى.فدوافع العرب إلى التّأليف المعجمي ثلاثة:

-**الّدافع الّديني** :وذلك حفاظاً على لغة القرآن الكريم من الّلحن والخطأ في الفهم؛ لأنّها المُركبة الوحيدة الّتي تنقل المكّلف إلى أغوار الخطاب القرآني؛ ليستبين أحكامه ويترجمها سلوكاً في حياته.

-**الّدافع الاجتماعي** :الأعاجم الّلذين أسلموا واقتنعوا بالإسلام منهج حياة، والّسبيل الأقوم لنيل الّسعادة في الّدارين، والّذين اتّخذوا لغة الّ ضاد لغة تخاطب وتواصل فاجتنبواَ لْكَنتَهم ورطانتهم.

الّدافع الّثقافي :هو ذلك الّنضج والوعي الّذين وصل إليهما الّرواة واللّغويّون ممّا تولّد لديهم حرص دقيق على جمع مفردات الّلغة، وتقوية جانبها الأصيل، وتنقيتها من الّدخيل، فانتهجوا التّأليف المعجم منهجا و اجراءا راقيْين.

4اول معجم لغوي عند العرب : ارخ معجم العين للخليل بن احمد الفراهيدي لميلاد اول معجم لغوي عربي لما فيه من متطلبات خاصة في صناعته سنفصل الحديث عنه في دروس لاحقة باذن الله.